مع الخليل بن أَحمد

إِمام العربية

ورائد مؤلفي المعاجم

الأستاذ عبد القادر زمامة

لعلّ أَصدق وصف وُصف به إِمام اللغة العربية، ونحوها، وعَروضها، ورائد كُتّاب معاجمها، هو ذلك الوصف الذي وصفه به معاصرُه سُفيان الثوْري المتوفى سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨م حين سُئل عنه فقال:

«.. ذلك رجل خُلق من المسك والذَّهَب» والقولة شهيرة في المصادر الأدبية والتاريخية ذكرها ياقوت الحَمَوي في معجم الأدباء كما ذكرها آخرون قبله وبعده.[1] وهي تصفُ رجلاً أَزْدِيّاً يَمنياً. كان يعيش مع قومه الأَزْديين في مدينة البصرة. مقبلاً منذ صباه على السَّماع. والرواية. والحفظ. والتأمل في لغة القرآن. والشعر. والرَّجز. والأمثال. وأحاديث الرّسول عليه الصلاة والسلام. وأقوال الأعراب: اليمنيين والرَّبَعِيين. والمضريين، الوافدين على هذه المدينة ملازماً حلقات المساجد التي تزخر بالمحدثين، والقُصَّاص، والفقهاء ودُعاة النِّحَل، ورُواة الأشعار، والأخبار، وأئمة القراءات.

واشتهر الخليل في البصرة بالعِفَّة. والصيانة. والجِدية. والتواضع. والصدق. والتباعُد عن رجال السلطة. والجاه. والمال ومن أجل ذلك شغل حيِّزاً من الشهرة العلمية. فتزاحم على مجالسه: الخاصة. والعامة عددٌ كبيرٌ من طلبة العلم. واللغة. والأدب والقراءات. ورواة الأشعار. وغريب اللغة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمهتمين بنحو هذه اللغة وصرفها واشتقاق مفرداتها وقوافي وأوزان الأشعار والأراجيز.

وانعكس ذلك على ماروواه الرواة عنه من أقوال. وأفكار. وتجارب. وحِكَم متعددة. ومتنوعة. نجدها مبعثرة. وعلى نطاق واسع في عدة مصادر ومراجع (٢).

ولا يمكننا ونحنُ نلقي نظرة موضوعيّة موجزة عن إمام العربية. ورائد كُتاب المعاجم. أن نهمل مايذكره الباحثون والدارسون. عن مسقط رأسه وتكوينه الأول... فإننا نجدهم يقولون:

«وُلد الخليل سنة ١٠٠هـ /٧١٨م بِعُمَانَ وتلقَّى دروسه بالبصرة مِن بَعْدُ على أبي عَمْرو بن العلاء. وعيسى بن عُمر الثَّقفي. وغيرهما وكان أول أَمره من الإِباضية إلا أنه انفصل عنهم، بنصيحة أُستاذه أيوب السختياني، واتبع أهل السنة(٣)».

ولعل نشأَتَه الإباضية.. (وسمتهم معروف) تركتْ أثرها في سَمْتِه، وخُلقه، وسُلوكه، ونَهجه في الحياة.

ونحن نعلم أن أقلام وألسنة الأقْدمين، كانت تشير إلى: سَمْت الإِباضية طوال قرون(٤).

ولم تلبث هذه الحالة التي نشأَ عليها الخليل أن صارت مكانةً، وحُظوة، واتسعت بها شهرة هذا النابغة المستقيم، الوَرِع، الملتزم، الملهم.

- فهو عمدة قراء عصره،
- وهو شيخ سيبويْه،
- وهو أستاذ الكسائي،
- وهو الملهَم الذي اهتدى إلى دقة الأوزان والألحان في الأشعار،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والآراجيز.

ـ وحول استقراءاته وابتكاراته نشأت مدرستا البصرة والكوفة كما هو معلوم.

والكتابان الكبيران. والمرجعان الأصليان لِلُغَة الضاد وإلى الآن هما:

ـ مُعجم العَيْن .. للخليل.

ـ وكتاب (سيبويه) لتلميذه سيبويه.

وهما في الحقيقة نتاجُ عِلم الخليل وعمله المدهش، في التصنيف، وجمع الأشباه، وتقعيد القواعد، وابتكار الاصطلاحات المعبرة فمن مجموع هذه الأشياء ظهر ما يسميه النحاةُ: «الكتاب» المعروف لسيبويه كما ظهر كتاب «العين» المعروف للخليل...

وحول الكتابين. ظَهرت المذاهب والآراء. وتسابق اللغويون والنُّحاة بهما إلى الشهرة والجاه والمال والحُظْوة عند الخاصة. والعامة ..في تلك العصور وتعرَّضت شهرة الخليل. وشهرةُ كتابه: (العين) إلى كثير من نقد الناقدين كما تعرَّضت مكانةُ سيبويْه. وشهرةُ كتابه. إلى أضْعَاف ما تعرَّض له أُستاذه: الخليل. وكتابه ..!! وذلك في عِدَّة أمصار وأقطار وقرون وأُلِّفتْ في الموضوع لأغراض شتَّى. وبدوافع شتى. مئات الكتب والرسائل. اشتهرت هنا وهناك... وفيها الصحيحُ والسَّقيمُ...

وإلى جانب هذه الحملات الانتقادية على الخليل وتلميذه هناك اعترافات واقتداءات وإعجابات لها أصداؤها في عدة كتب ومعاجم ومصادر ومراجع أُلِّفت في المشرق والمغرب والأندلس تُكوِّنُ كفةً مُعَادِلَةً في ميدان البحث والدرس والمقارنة والإنصاف للخليل وكتابه .. وما قيل فيهما.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولعل أهمَّ. وأصدقَ. وأفيدَ مَنْ وقف أمام منتقدي الخليل. ومعجم «العين» هو جلالُ الّدين السيوطي العالمُ الموسوعيُّ الشهيرُ فقد تصدَّى لهذا الموضوع. بكل ما يملك مِن اطلاع. وتَتَبُّعٍ لما جاء في أقوال اللغويين ولا سيما منهم أصحاب المعاجم فكتب صفحاتٍ متَّزنَةً في كتابه « المُزْهِر»(٥) أظهر فيها ما أخفاه الآخرون وكشف ما حاول سترَهُ الآخرون وتتبع كتاب «العين» وما قال النقادُ فيه جَمْعاً وترتيباً ومنهاجاً وما فوَّقُوا إليه مِن سهام وما وصفوه به من صفات .

وبذلك كان قاضياً مُنْصِفاً وحَكَماً عَدْلاً ومطلعاً خبيراً ومجرِّباً قديراً أضَاء للباحثين معالم الطريق في هذه القضية ... التي ما تزال تثار إلى الآن .

وتكفي الإشارةُ هنا إلى أنّ طريقة الخليل في كتابه «العين» حين صنَّف مفردات اللغة كانت طريقةً اتّبعها بَعْدَهُ طيلةَ قرون كثيرون .

منهم على سبيل المثال في المشرق:

- ابنُ دُرَيْد في (الجمهرة ...).
- والأزهريّ في (التهذيب ...).

ومنهم على سبيل المثال في الأَندلس:

- أبو عليّ القالي في كتابه: « البارع».
- وابنُ سِيدَه. في كتابه: «المُحْكَم».

وطريقة الخليل في ترتيب مفردات اللُّغة في المعجم تقوم على دعامتين: لفظية ومعنوية وكلتاهما تقوم على ذكاءٍ . وذَوْق .. لا يملكهما إلاَّ الراسخون في اللُّغة. واشتقاقاتها. وما كان للأصوات وتموجاتها من أثر فيها تقوم على معرفة واسعة بالحروف الأصول والحروفُ الزوائد وما إلى ذلك مِمَّا لا نقف عند تفصيله الآن وقد أشار إليه الخليل في المقدمة التي قدم بها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معجمه الكبير .

وإذا وقفنا اليوم معَ الخليل بن أحمد هذه الوقفة القصيرة. فلأننا نَشْعُرُ بعد ظهور كتابه: «العين» في عالم الطباعة وقد كنا لا نعرفه إلا من خلال ما نراه في «المعاجم المختلفة» منقولاً عنه بتصريح. أو تلميح. أو تجاهل أنَّ هناك حقيقةً تأكَّدَتْ ومنقبةً تمكَّنت وهي:

أن عمل الخليل في «العين» كان رِيَادَةً ومنهاجاً صانَ لغة الضاد. وشملها برعاية فائقة. وفهم ثاقب، وتنسيق بديع مما لا يكون عادياً إلا إذا تجنّدت له مجامع ومحافل وكفاءات لها صبرٌ وتجربةٌ وهدفٌ نبيلٌ لكتابة مثل هذا المعجم الغريب.

وهذا بطبيعة الحال كان في القرن الثاني من الهجرة. وهو القرنُ الذي عاش فيه الخليلُ ونبغَ فيه. وأُلْهِمَ ما أُلْهِمَ فيه لا ظلّ له ولا أثر ولا مشجِّعَ. ولا مُعينَ إلاّ ما أظهرته تلك الهمةُ الصادقةُ مع مَن التفُّوا حولها من طلبة اتَّخذوها مَنَارةً. في طريقهم وأُسوةً في سلوكهم وهدفاً في دراستهم.

وينبغي أن نشير هنا إلى الترجمة التاريخية المفيدة.التي خص بها السيوطيُّ الخليلَ بنَ أحمدَ في كتابه: «بغية الوُعاة»[٦] كما أشرنا قَبْلُ إلى الصفحات المتَّزنةِ التي كتبها عنه في كتابه الآخر: «المُزْهِر » وقد جاء في ترجمة (البُغية) بعضُ ما حُكِي عن ذكاء الخليل. وبعضُ ما قام به من إحصائيات لمفرداتِ اللّغة. وموادِّها .. وبعض ما نظمه مثل قوله:

لو كنتَ تَعلم ماأقولُ عذرتَني ... أوْ كُنتَ تجهلُ ماأقولُ عذرتكا

لكن جهِلتَ مقَالَتي فعَذَلْتَني ... وعلمتُ أنّكَ جاهلٌ فَعذرتُكا

ولعله خاطب بذلك ولدَه في ظرفٍ خاصٍ .

وقبل الجلال السيوطي ومَاكتبه عن الخليل في «البُغية» و «المزهر»

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتب جمال الدين القِفْطي المتوفى سنة ٦٢٤ هـ ترجمة مشرقة مستوعبة لصاحب كتاب «العين»(٧).

وأهم ما في هذه الترجمة. أن القفطي ـ زيادة على ما سجله من نظم الخليل ـ ذكر قولتين اثنتين:

ـ الأولى: للأصمعّي يروي فيها ماقال الخليل عن العلوم وفروعها ... وأُصولها ومالهذه الأصول. والفروع. من انعكاسات على المجتمع البشري عامة والعلماء خاصة .

ـ والثانية: لابن المقفع الذي حاور الخليل ثم قال بعد ذلك:

رأيتُ رَجُلاً. عقْلُهُ أكبرُ مِنْ عِلْمِهِ .

وهاتان شهادتان لهما وزنُهما عند الحُكم على الخليل وثقافته وإنتاجه وقد نقلهما كثيرون.

ومن حسن حظ الخليل أنّ أعلاماً من اللُّغويين المتأخرين عن عصره كابْنِ فارس. وابْن جِنّي وغيرهما استفادوا من بُذُور الخليل التي بذرها في نظرية: التطور اللّغوي شكْلاً في الكلمات وعدد حروفها وفي المعاني وتنوعها والأصوات وترتيباتها.

كما أن لُغويين مُعاصرين كفارس الشدياق وجرجي زَيْدان وانستاس ماري الكرملي وغيرهم جعلوا نظرية التّطور اللغوي التي أشار إليها الخليلُ منطلقهم نحو أبحاث ودراسات مفيدة. لغوياً.

ومن أجل سعة آفاق ذهن الخليل واعتماده على الصوتيات والاشتقاقيات نجد أن فهمه وحسه اللغوي كانا يجعلانه فَوق ما اصطلح عليه الأقدمون من مذهبية: «كُوفية» و «بَصْرِية» فهو متبوعٌ لا تابع أوْ كما يقولون: أُمَّةٌ وحده ودَّع هذه الحياة قبل أن تستقر (مذهبية) تلاميذه في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدينتيْن.

وكما كان الخليلُ إمام (العربية) أي النَّحو واللغة وما إليهما فإنه كان إماماً في (الشواهد) التي استشهد بها على المعاني الأَصْلِيّة والمجازيّة ويتتبَّعُ «في الجملة» تطوُّر الدَّلالة عند الشعراء ولا سيما منهم أهل الجاهلية حيث هداهم التطورُ الطبيعي للأشياء وارتباط بعضها ببعض إلى أن يستعملوا الكلمة الواحدة في عدة دلالات مترابطة ومتناسبة وتُكوِّنُ «شواهدُ كتاب العين» رصيداً ثميناً للمعاني والدَّلالات المختلفة وقد أعانَ الخليلَ على حشد هذه الشواهد اللُّغوية ما كان يحفظه من قصائد وأرجاز جاهلية وإسلامية.

وهناك إلى جانب «الشواهد الشعرية» نجد الخليل يعيّن بعض المواقع الجغرافية التي يشير إليها الشعراء... وعلى سبيل المثال حينما ذكر مادة «عَقَّ» واستشهد ببيت الشاعر جرير:

فهيهاتَ هيهاتَ العقيقُ وأهلُه وهيهات خِلٌّ بالعقيق نُحاولُه

نجده يقول:

«والعقيقُ: جَزْعٌ أَحْمَرُ ينظم ويُتَّخَذُ منهُ الفُصوصُ الواحدة عقيقة والعقيق واد بالحجاز كأنه عُقَّ. أي شُقَّ» فله خبرةٌ واسعةٌ في عصره بأسماء الأماكن والنجوم والكواكب والطيور والوحوش يشير إلى ذلك. باقتضاب ولا يتوسّع أثناء شرح المادة اللغوية وما يلحقها من أسماء وشواهد شعرية ويودع ذلك كله المواد اللغوية في كتاب العين.

كلُّ هذه الارتسامات عن الخليل أوحت بها هذه الوقفة القصيرة مع كتابه «العين» الذي حلَّ محله من المكتبة اللغوية العربية بعد أنْ طُبع كاملاً بتحقيق اللغويين الشهيريْن:

ـ د. مهدي المخزومي.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ود. إبراهيم السامرائي.

في ثمانية أجزاء ببيروت ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

وقد أديا بذلك ديناً كان للخليل على الباحثين في اللّغة العربية ومعاجمها.

ومقدمة المحققيْن مقدمة جعلتْ الكتاب ومؤلفه في مكانهما الحقيقي ،كما أشارت إلى الحملات التي تعرَّضا لها ـ من جهات مختلفة ـ طيلة عصور وهي حملات متنوعة أشرنا إليها قبلُ ويبدو أن التعليقات والتحقيقات والتخريجات كانت مركَّزة. ومفيدة. في جميع أجزاء الكتاب.

ومن الطريف أن الخليل بن أحمد كتب لكتابه مقدمة أبانَتْ عن ثلاثة أشياء:

ـ أنه بدأ عمله اللّغوي بإحصاء المفردات.

ـ وأنه رتَّب المادة اللغوية ترتيباً اجتهادياً.

ـ وأنه قَرَّبَ هذا الترتيب من قراء كتابه.

حيث إنه بيّن كيفية البحث عن المفردة المطلوبة بعد معرفة اصطلاحه الخاص. ويزخر كتاب العين بالشواهد والأمثال لبيان المفردات ومعانيها الحية في النصوص التي جاء بها فإذا جَرَّدنا كتاب العين من هذه الميزة ميزة الشواهد التي جاء بها الخليل صرنا أمام موادَّ لغوية جامدة. لا حياة بها وهذا ماأراد الخليل اجتنابه وهو يؤلف هذا المعجم.

وكما بدأنا هذه الوقفةَ القصيرةَ مع الخليل بن أحمد شيخ العربيّة بكلمة سُفيان الثوري التي جعلته مخلوقاً من مِسكٍ وذَهبٍ فإننا نختمها بالإشارة إلى تلك الطرفة الفكرية. التي سجّلها القاضي الأديبُ المفكرُ: المحسِّنُ التنوخيّ في كتابه البديع: (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) ومجملُها أنَّ الخليلَ بن أحْمَدَ ألجأتْهُ الضرورة في إحْدى سفراته إلى صومعة راهب نصراني أراد أن يحتمي بها خَوفاً من اللصوص فطرق البابَ لكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الراهب لَمَّا عرفه وأدْرَكَ حَاجَته أجابه بأنه لا يفتح لهُ البابَ ولا يحميه مِن اللصوص إلا إذا أجابه عن أسئلة. دقيقة من غوامض المعتقدات فلم يكن من الخليل إلاَّ أن استعمل ذكاءَه وتفكيرَه الجيّد وحُجَّته المقنعة وأجاب الراهب بشجاعة ورباطة جأش وكأنه إمامٌ في المعتقدات وأصول الأديان.

وعندها فتح الباب وحيّاه واستقبله بتقديم كل ما يحتاج إليه وحماه من كل ما كان يتعرض له لوبقي خلف الباب في ذلك المكان الموحش(٨).

وإلى طرفة أخرى جاء بها أبو الطيّب اللغوي. في كتابه: «مراتب النحويين» على هذه الصورة:

«الأصْمَعي قال: سمعتُ الخليل يقول: مرَّ بنا الفرزدق ونحن صبيان نلعب وقد انصرف من المهالبة وهو على بغلة وقد كان قبيحَ الوجه قصيراً فجعلنا ننظر إليه فوقف وقال:

نظروا إليك بأعين محمَّرةٍ

نَظَرَ التُّيُوس إلى مُدَى القَصَّاب

فقال له بعضُنا:

نظرنا إليك لأنك مُليح كما ننظر إلى القرد لأنه مليح فضرب وجه بغلته وانصرف(٩).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المصادر والإحالات

(١) معجم الأدباء. ج ١١ ص ٧٤، ط دار المأمون القاهرة.

(٢) انظر بعضها على سبيل المثال في:

ـ كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي ج ٣ في عدة صفحات تحقيق. د. وداد القاضي بيروت ١٩٨٨م.

ـ مراتب النحويين. لأبي الطيّب اللغوي ص ٥٤. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٩٧٤م.

ـ وفيات الأعيان. ج ٢ ص ١٥. تحقيق محيي الدين القاهرة. ١٩٤٩م.

ـ شرح الشريشي على المقامات. ج ٤ ص ٦٠ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة. القاهرة ١٩٥٣م.

(٣) تاريخ التراث العربي. للدكتور. فؤاد سزكين مج ٨ القسم الأول. ص ٨٠. الرياض ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م وعن أيوب السختياني. انظر سِيَر أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ج ٦. ص ١٥. بيروت ١٩٩١م.

(٤) انظر قطعة شعرية جاء بها أبو عُبيد البكري في كتابه: المسالك والممالك. ص ١١٠. ط. (مصورة) مكتبة المثنّى ببغداد.

(٥) المزهر. ج ١ ص ٧٦ ومابعدها. تحقيق جماعة. القاهرة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨م.

(٦) البغية ص ٢٤٣، القاهرة ١٣٢٦ هـ.

(٧) إنباه الرواة. على أنباه النحاة. ج ١ ص ٦٧٦. القاهرة ١٩٨٦م.

(٨) نشوار المحاضرة. وأخبار المذاكرة ج ٨ ص ٦٥. ط بيروت ١٩٩٥م.

(٩) مراتب النحويين ص ١٠٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net